الباب الثاني

الشتات اليهودي

نبذة عن تاريخ

فلسطين بعد الميلاد

مع بدء التاريخ الميلادي، وبعد أن سيطر الرومان على حركة التمردات التي شهدتها المنطقة في سياق القرن الميلادي الأول، وبداية القرن الميلادي الثاني سادت حالة من الهدوء في فلسطين تحت الحكم الروماني، ومرّ زمان طويل ظلت فيه كل الطرق تنتهي في روما، ولم تتغير الحالة إلا في بداية النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي حيث بدأت مظاهر تفكك الإمبراطورية بالبروز، ثم أخذت الحركات الشعوبية المتنوعة تنهش في أطراف الإمبراطورية، وهذا ما أتاح للفرس سنة ٢٦٠ للميلاد بقيادة سابور من التحرر من حكم الرومان، ومن ثم بدؤوا بالتوسع في محيطهم الجغرافي، وفي تلك الفترة استطاعت زنوبيا ملكة تدمر التاريخية أن تتوسع أيضا على حساب الأقاليم التي كانت تحت الحكم الروماني، والتي كانت تعاني حالة من التفكك، وأصبحت فلسطين تحت الحكم التدمري في سنة ٢٦٧ للميلاد، ولم تستطع روما أن تعيدها إلى سلطتها إلا بعد خمس سنوات.

ومرت السنون لتبدأ مرحلة انحطاط الإمبراطورية الرومانية التي في النهاية انقسمت سنة ٣٣٠م إلى شطرين:

شــرقي: بقيـــادة القســطنطينية

وغربـي: بقيـــادة رومـــا

وقد تبنت القسطنطينية المسيحية الشرقية في عهد الإمبراطور قسطنطين الأول (٢٨٨ - ٣٣٧م) الذي اعتنق المسيحية في بداية القرن الرابع الميلادي ثم جعلها العقيدة الرسمية للإمبراطورية سنة ٣٢٦ للميلاد، وقام بإنشاء عدة كنائس في فلسطين (الأرض المقدسة)، كما أن أمه هيلين التي أقامت في الأرض المقدسة أبدت اهتماما خاصا بها، وقد بنت كنيسة القيامة في أورشليم التي أصبحت محجا للمسيحيين، أما بالنسبة لليهود فقد سمح الإمبراطور قسطنطين لهم بدخول المدينة لينوحوا على حائط المبكى بذكرى سقوطه، ولكنه بالوقت نفسه منعهم من التبشير باليهودية، كما أنه منعهم من ختن العبيد المسيحيين والتزاوج مع المسيحيين، وقد تنصر الكثير من اليهود بعد هذه القرارات.

وبين عامي ٤٨٤ و ٥٢٩ للميلاد قام السامريون بعدة تمردات على سلطة روما، وقد نجحوا من خلال أحد التمردات من إعلان ملكا عليهم، ولكن سرعان ما تم إخماد هذا التمرد.

وفي عهد الإمبراطور يوليانوس الذي ارتد عن المسيحية، والذي دعا بعض يهود الشتات أن يعودوا إلى أورشليم ليعيدوا بناء الهيكل على نفقة الخزانة الرومانية، ولكن

الحرب التي أعلنها الفرس على روما حالت دون تنفيذ رغبته، وقد استطاع الفرس الساسانيون غزو سوريا سنة ٦١١ للميلاد، ودخلوا فلسطين سنة ٦١٤ بمساعدة اليهود أثناء حكم كسرى الثاني ابرويز (٥٩٠ - ٦٢٨م)، وكان يقدر عدد اليهود في فلسطين في تلك الفترة نحو ٢٠٠ ألف يهودي، ولكن الإمبراطور هرقل، الذي تصدى للتوسع الفارسي، استطاع من خلال عقد اتفاق معهم سنة ٦٢٩م أن يسترجع الولايات الشرقية، بما فيها إيليا كابيتولينا (أورشليم) إلى السيادة الرومانية.

وفي سنة ٦٣٨ للميلاد، وبعد معركة اليرموك الشهيرة التي دارت رحاها بين العرب المسلمين، وبين القوات الرومانية، استسلمت إيليا كابيتولينا للخليفة عمر بن الخطاب، والذي دخلها سنة ٦٣٧ للميلاد، وقد تقدم مسيحيو إيلياء (أورشليم) إلى الخليفة عمر بطلب ينص على منع اليهود من السكنى في أورشليم، وقد وافق عمر على هذا الطلب، ولكنه سمح لهم بالدخول إليها لأداء شعائرهم الدينية، لا سيما وأن اليهودية، في مراحل لاحقة، وبتأثير من شعيرة الحج الإسلامية، جعلت من حائط المبكى محجا يهوديا.

وفي سنة ٦٩١ للميلاد بنى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قبة الصخرة فوق القمة الصخرية لهضبة القدس الشرقية، التي يعتقد أن الرسول محمد قد عرج منها إلى السماء.

وهنا يتوقف، وبشكل نهائي، كل ارتباط لليهود ببيت المقدس (أورشليم) وبفلسطين ككل، ولكن العهد الإسلامي سرعان ما دخل في مرحلة من التشتت والتفتت بعد العصر العباسي، وتسلط الشعوب الفارسية والتركية على الأمة الإسلامية، ولم يكن من هم لدى قادة المسلمين سوى تسمياتهم، وألقابهم، وتوسيع ممالكهم، دون أن يكون لديهم أدنى مسؤولية بالمفهوم الحضاري العام.

أما بالنسبة لفلسطين على وجه الخصوص فقد تعاقب على حكمها كل من الأمويين، ثم العباسيين، ثم الفاطميين، ثم السلاجقة، ثم الأتراك، ولأن لفلسطين خصوصية دينية بالنسبة للديانات السماوية الثلاث، وبسبب المطامع الاقتصادية الجغرافية فيها، فقد كانت فريسة للصراع بين الشرق الإسلامي، والغرب المسيحي الذي جاء بقواته الصليبية عبر عدة حملات، وقد استطاعت القوات الصليبية، وكان أغلبهم من الفرنسيين الذين سماهم العرب الفرنجة، أن تصل إلى بيت المقدس (أورشليم)، بعد مذبحة كبيرة بلغ عدد القتلى فيها قرابة سبعين ألفاً حسب بعض الروايات، واستطاع الصليبيون أن يؤسسوا مملكة أورشليم اللاتينية سنة ١٠٩٩م.

ولكن الخلافات والصراعات التي اندلعت بين القيادات البيزنطية والصليبية، مكّنت المسلمين آنذاك تحت قيادة الأيوبيين الذين تجمعوا تحت قيادة صلاح الدين الأيوبي، وبعد عدة مواجهات انتهت بمعركة حطين سنة ١١٨٧م، التي انتصر فيها المسلمون، وأسروا ملك أورشليم بالذات، وطردوا القوات الصليبية الذين استطاعوا أن يتحصنوا في مدينة صور، ولكنهم استطاعوا أن يتوسعوا ثانية، بعد أن تمددوا على الساحل الشرقي للمتوسط، نحو الداخل السوري، وبعد ضعف، وتشتت القيادات الإسلامية، وحسب اتفاقيات أبرمت سنة ١٢٢٩م بين الطرفين، خضعت القدس ثانية للصليبيين، عدا الحرم القدسي (المسجد الأقصى وقبة الصخرة) الذي كان تحت سيطرة الأيوبيين ورثة صلاح الدين، الذين عادوا واستردوا القدس كاملة سنة ١٢٣٩م، ثم،

وحسب اتفاق آخر خضعت مرة أخرى للفرنجة، ولكن المسلمين الخوارزمين سيطروا عليها سنة ١٢٤٤م، وكان هذا آخر عهد للصليبيين في القدس الذين حوصروا على الشريط الساحلي، في الوقت الذي بدأ فيه حكم المماليك للبلاد، حيث في عهدهم اجتاح المغول المنطقة، ودمروها بشكل خاطف، ولم يوقف تقدمهم إلا بيبرس، الذي استطاع في معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠م، أن ينتصر عليهم، وبعدها استطاع بيبرس أن يتفرغ للصراع مع الفرنجة، وأن يطردهم من البلاد، وأن يحاصرهم في مدينة عكا، والتي ظلت مع صور القلعتين الحصينتين لهم، وفي النهاية سقطت عكا سنة ١٢٩١م بيد المماليك الذين دخلوا في صراع مع التتر والمغول من جهة، وفي صراعات بينية من جهة أخرى، أدت إلى استلام المماليك البرجية (الشركس) السلطة، والذين تصارعوا مع القوى التركية العثمانية الجديدة، والذين اجتاحوا المنطقة في بداية القرن السادس عشر الميلادي، أما بالنسبة لفلسطين والتي كانت قد شهدت ازدهارا في عهد الأيوبيين والمماليك، عادت للتراجع عمرانيا واقتصاديا كباقي البلدان، وبخاصة في العهد الثاني للمماليك، وقد وصلت إلى أسوأ مرحلة في تاريخها.

أما العثمانيون الذي كانوا قد توسعوا شمالا وغربا، استطاعوا في النهاية أن يستولوا على القسطنطينية منهين بذلك الإمبراطورية البيزنطية سنة ١٤٥٣م، ثم قاموا بمد نفوذهم نحو أوربا، ثم توجهوا شرقا نحو إيران التي كانت تحت حكم الصفويين، وجنوبا نحو بلاد الشام ومصر المملوكية في عهد سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠م)، والذي استطاع أن يمدد الإمبراطورية العثمانية على ثلاث قارات هي أوربا وآسيا وأفريقيا، وأصبحت اسطنبول، بعد دمشق، ثم بغداد، ثم القاهرة عاصمة المسلمين، وإن كانت الإمبراطورية العثمانية قد تشكلت خلال مرحلة قصيرة نسبيا، فإن انهيارها تدرج قرابة ثلاثة قرون بحيث استحقت لقب (رجل أوربا المريض)، في الوقت الذي بدأت فيها النهضة الأوربية بالتصاعد تاريخيا.

وفي القرن السابع عشر للميلاد، بدأت الثورات وحركات التمرد في بلاد الشام، وقد ابتدأها المعنيون الدروز في جبل لبنان، الذين استطاعوا أن يؤسسوا إمارة مستقلة، ولكنها سرعان ما انتهت.

أما في القرن الثامن عشر الميلادي فقد استطاع المماليك أن يعودوا إلى استلام السلطة في مصر على يد محمد علي بك، وأيضا تسلّمت عائلة العظم الشامية ولاية دمشق، وفي فلسطين استطاعت عشيرة الزيادية البدوية بقيادة ظاهر العمر أن تبسط نفوذها على فلسطين وأجزاء من لبنان، والذي بتحالفه مع محمد علي بك استطاعا أن يدخلا دمشق، وبمساعدة الأسطول الروسي الذي قام بقصف بيروت سنة ١٧٧١م، ولكن أحمد باشا استطاع أن ينهي سلطة ظاهر العمر، وقد مُنح ولاية عكا مكافأة له، والذي وسّع نفوذه فضمّ لبنان وأجزاء من سوريا، ووصل حتى حدود مدينة دمشق على فترات متقطعة متمردا على الباب العالي، ولكن حملة نابليون التي استطاعت أن تنزل على شواطئ فلسطين وتحتلها، حاصرت أحمد باشا في عكا، والتي أعطته شهرته بصموده أمام حملة نابليون (١٧٩٨ - ١٨٠١م)، ولكن مساعدة الأسطول الإنكليزي لأحمد باشا من جهة البحر، والجيوش العثمانية من جهة البر، والطاعون من جهة ثالثة، أُجبر نابليون على الانسحاب والنكوص إلى مصر، حيث هناك

استطاعت القوات المحلية المصرية بالتعاون مع الإنكليز من إنهاء مغامرة نابليون، وعادت مصر إلى السلطان العثماني سنة ١٨٠١م، إلا أن هذه الحملة، والتي أتت بعد مدة طويلة من الحملات الصليبية، وعلى الرغم من انكسارها، فقد فتحت شهية أوربا ثانية ككل إلى المنطقة العربية.

وبعد اندحار حملة نابليون عاد الجزار إلى هيمنته على المنطقة حتى مات سنة ١٨٠٤م، حيث اندلعت عدة انتفاضات ضد حكم دمشق بدعم من محمد علي بك، في الوقت الذي بدأت تصل إليها طلائع الحركة الوهابية من الجزيرة العربية، ولكن الصراعات الداخلية للزعامات القبلية سمحت لمحمد علي، الذي كان قد أنهى الحركة الوهابية، أن يمتد بقيادة ابنه إبراهيم باشا نحو بلاد الشام، وكانت فكرة حفر قناة السويس قد أعطى منطقة فلسطين أهمية عالمية خاصة تضاف إلى أهميتها الدينية، وفي الوقت الذي بدأ فيه المفهوم القومي العربي يتبلور، كانت الحركة اليهودية أيضا تستنهض ذاكرتها، وبدأت بدفع المستوطنين اليهود نحو فلسطين اعتبارا من سنة ١٨٨٢م.

أما إبراهيم باشا فقد استطاع، بعد أن سقطت بلاد الشام بيده، أن يمتد شمالا، وتوقف بعد معاهدة كوتاجيه سنة ١٨٣٣م، وبها تم اعتراف السلطان محمود الثاني بحكم محمد علي الوراثي على مصر وبلاد الشام وأضنة، التي شهدت ازدهارا قصيرا سرعان ما انتهى باندلاع الثورات والتمردات في المنطقة الوسطى من فلسطين بتحريض من بريطانيا، بعد أن كان محمد علي قد وقّع اتفاقيات تعاون مع فرنسا، الأمر الذي أثار حفيظة بريطانيا، وقد بدأت الثورة سنة ١٨٣٤م في منطقة القدس وامتدت لتشمل فلسطين، ولكن إبراهيم باشا، الذي أتته الإمدادات من مصر، استطاع أن يكبح جماح الثورة، وأن يتفرغ للصراع مع العثمانيين، والذي كاد أن يجهز عليهم لولا مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠م الذي عقد لإنقاذ الرجل المريض من يد رجل فتي قد يصعب صراعه لاحقا، وقد شارك في المؤتمر كل من روسيا والنمسا وبروسيا، وتغيبت فرنسا التي كانت تقف إلى جانب محمد علي، وقد وجه المؤتمر إنذارا إلى محمد علي للانسحاب من الأراضي التي استولى عليها، وقد رفض محمد علي هذا الإنذار، فهاجمت أساطيل بريطانيا والنمسا الساحل السوري واحتلته، ووصلت حتى مدينة عكا، مما اضطر جيش محمد علي للانسحاب جنوبا، أمام تقدم الجيش العثماني الذي وصل إلى فلسطين، واحتل مدينة القدس، وخرج بذلك محمد علي من بلاد الشام بعد تسع سنوات من دخولها (١٨٣١ - ١٨٤٠م)، بعد أن كان إبراهيم باشا قد أحدث بعض التغيرات الإدارية المهمة، وكان على رأسها السماح للبعثات التبشيرية الدينية الثقافية الغربية بالقدوم إلى المنطقة، والأهم من ذلك سمح للإنكليز بفتح قنصلية لهم في القدس، الأمر الذي أجبر السلطان العثماني أن يسمح لباقي الدول الأوربية أن تفتح لها قنصليات أيضا بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية، والتي أخذت تتدخل بالشؤون الداخلية للمنطقة، وهذا ما جعل السلطان العثماني سنة ١٨٧٣م، يُعَدّ مدينة القدس التابعة لولاية سوريا، إدارة مستقلة، وتابعة إلى اسطنبول مباشرة، للسيطرة على الوضع الأمني فيها، ومراقبة نشاط القنصليات الأجنبية، والتي كانت تقوم بدور قيادي من خلال الكواليس، كما أنها كانت تعمل على إثارة الفتن والصراعات المحلية بين الطوائف والقبائل، من خلال تقديمها المال والسلاح للأطراف المتصارعة.

وأهم ما قامت به تلك القنصليات هو تبني، وحماية الجالية اليهودية، التي بدأت بالتزايد من خلال قدومها من أوربا، وبخاصة إلى مدينة القدس، في الوقت الذي كانت فيه

الصهيونية تدفع بهم إلى فلسطين (أرض الميعاد)، وكانت تتم حمايتهم وتحصينهم على اعتبارهم من الجاليات الأجنبية، كما أن القنصليات كانت تُعَدّ أو تتعامل مع المسيحيين العرب مثلهم مثل الجاليات الأجنبية، فكانت طائفة الروم الأرثوذكس تحت حماية القنصلية الروسية، أما الطائفة الكاثوليكية فكانت تحت حماية القنصلية الفرنسية، ولما لم يكن في فلسطين طائفة بروتستانتية، فقد قامت كل من بريطانيا وبروسيا بإنشاء مطرانية بروتستانتية في القدس سنة ١٨١٤م، والتي قامت بأعمال تبشيرية استقطبت من خلالها بعض المسيحيين العرب (الأرثوذكس والكاثوليك)، ومع مجيء البعثات التبشيرية على اختلاف طوائفها، توافدت أيضا الجمعيات الأثرية التي أتت للبحث عن آثار التوراة، ومع هذه النشاطات المتعددة حصل ازدهار سكاني وصل في سنة ١٨٨٠م إلى قرابة النصف مليون، وكانت الدول الأوربية، في هذا السياق، توظف البعد الديني في خطابها السياسي من أجل أهدافها الاستعمارية.

وفي الوقت الذي بدأت الأحداث تنبئ بقرب لفظ الأنفاس الأخيرة (للرجل المريض)، وبنهاية مرتقبة لآخر إمبراطورية من القرون الوسطى، ترافق ذلك مع بدء تنامي الوعي القومي العربي، بعد أن تم استنفاذ مفهوم الأمة الإسلامية التي دفعت من خلاله الأمة العربية قرونا من التخلف الحضاري منذ العصر العباس الثاني، فبدأت تتشكل الجمعيات والمنظمات السرية، وقد تم إصدار الصحف والمجلات، وطبعت أمهات الكتب التراثية، وقد دفعت بعض الشخصيات العربية حياتها ثمنا من قِبَل الباب العالي الذي لاحقهم، وبخاصة في عهد السلطان عبد الحميد.

وبعد الحرب العالمية الثانية، وتفكك الإمبراطورية العثمانية، وحسب اتفاقية سايكس بيكو، أصبحت فلسطين خاضعة لقوات الانتداب الإنكليزي، التي هيأت المنطقة ليتمسرح عليها وعد بلفور لليهود بشكل عام، وللصهيونية بشكل خاص، والتي استطاعت أن تعلن قيام دولة إسرائيل يوم ١٥ - ٥ - ١٩٤٨.

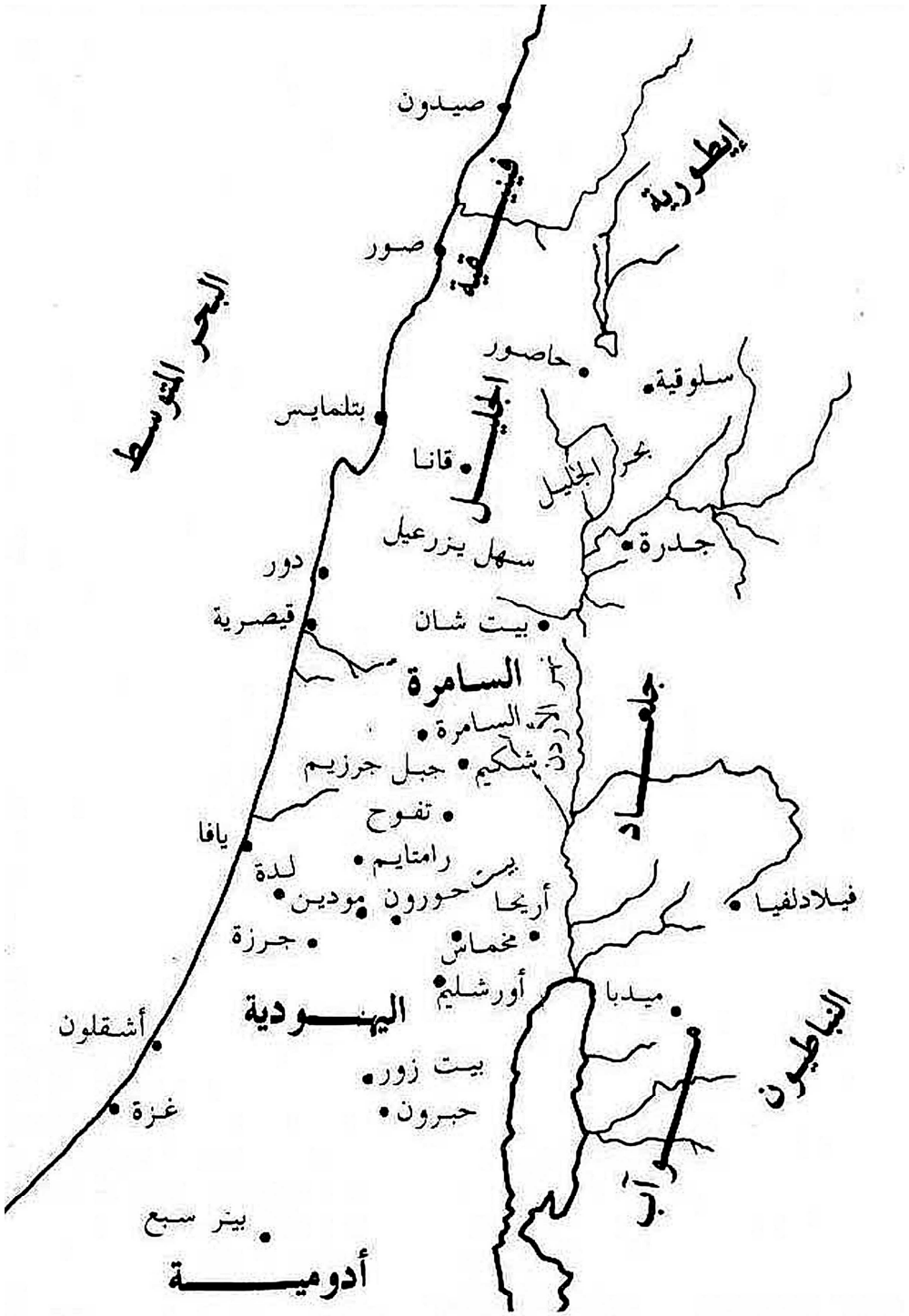

أرض إسرائيل فيما بين العهدين

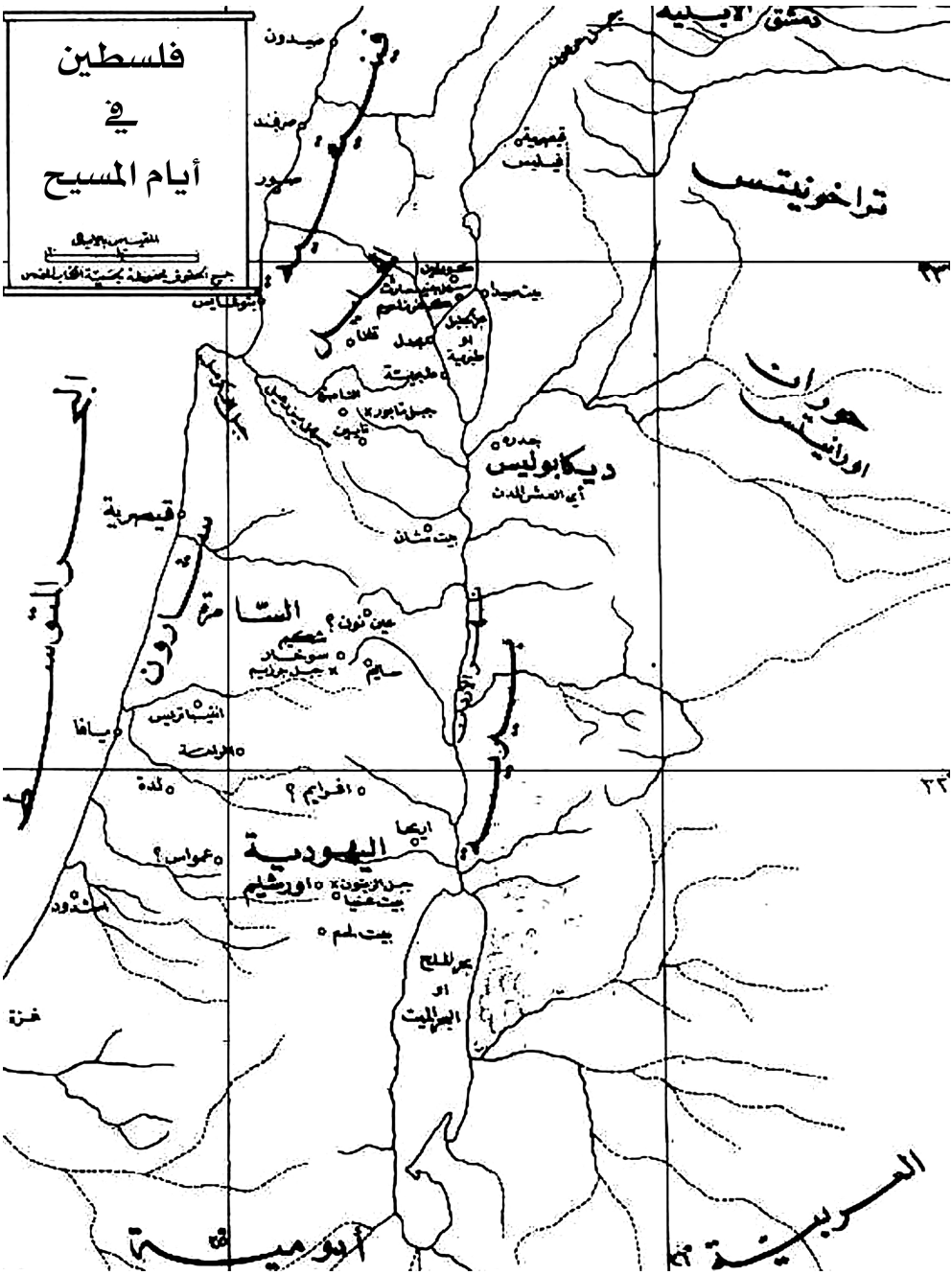

فلسطين
في
أيام المسيح
صيدون
صرفند
صور
قيصرية
فيلبس
تراخونيتس
حوران
اورانيتس
بيت صيدا
كفرناحوم
قانا
طبرية
الناصرة
جبل تابور
نايين
جدرة
ديكابوليس
أي العشر المدن
بيت شان
قيصرية
السامرة
عين نون ؟
شكيم
سوخار
ساليم
جبل جرزيم
يافا
لدة
افرايم ؟
اريحا
اليهودية
عمواس ؟
جبل الزيتون
اورشليم
بيت عنيا
بيت لحم
اشدود
غزة
بحر الملح
او
البحر الميت
أدومية
العربية